

الأساس هي الطب النفسي الافتراضات الأساسية: الفصل الخامس:

ملف اضطرابات الوعي (23)

عن طبيعة الأحلام واضطراباتهما

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD19715.pdf>

بروفيسور يحيى الرخاوي

mokattampsy2002@hotmail.com - rakhawy@rakhawy.org

نشرة "الإنسان والتطور" 2015/07/12

السنة الثامنة - العدد: 2872



مقدمة

إذا كنا عجزنا - بمق الأمانة العلمية والتاريخية - عن التعرف على طبيعة ما يسمى الوعي، وكان النوم هو أحد تشكيلات الوعي في دوراته الإيقاعية، ثم إن داخل هذا الوعي إيقاع وعى آخر هو إيقاع الحلم، فكيف بالله عليكم نتكلم عن الحلم بهذه الوثقائية التفسيرية الوصية؟؟؟

ابتداءً يستحسن - كما ذكرنا سالفاً- التحفظ على تفسير الحلم بكل تشكيلاته الشعبية، والتاريخية، والتحليلية، والدينية خصوصاً السطحية البشرية منها، حتى إذا سميت بأسماء علمية، أو فقهية.

إذن ماذا؟

هل نقفل هذا الباب من حيث المبدأ؟

وماذا نعمل للمرضى ومع المرضى (وغير المرضى) الذين تكون معظم شكاوهم مرتبطة بالأحلام بشكل أو بآخر؟

الرأى عندي هو أن نحترم مثل هذه الشكاوى مثلما نحترم أى شكوى أخرى، وأن نبحت في آثارها، وربما في معناها، أكثر من بحثنا في محتواها ومغزاها، ناهيك عن أن نتابع - مع العلاج أو بدونه - تغير الشكوى إلى ما كانت عليه الحال قبل الاستشارة أو المرض، وتأثير ذلك على الأداء والتكيف وما يسمى الصحة النفسية.

الفروض عندي - وقد ألمحتُ إليها سابقاً- كثيرة ومنظمة ومتناسكة ومدعمة بما تيسر من فروض أخرى، وأيضاً بما تيسر من ملاحظات وقياس.

هذا، علماً بأن أهم قياس هداني إلى محاولة فهم طبيعة "عملية الحلم"، وبعض وظيفته، هو القياس على عملية الإبداع، وأيضاً على عملية الجنون، أقول "عملية"، ولم اشيرَ لا إلى محتوى الإبداع ولا إلى ناتجه في أى مجال، وأيضاً لم أعرجُ إلى محتوى الجنون ولا مآله بأى صورة، وإنما تركيز القياس والمقارنة هو على العمليات (العملية) التي تفرز الثلاثة مع اختلاف المسار والمآل.

ابتداءً سوف أورد ملامح هذا الفرض الذي كتبتَه مفصلاً في دراستي "الإيقاع الحيوى ونبض

الإبداع" وبدرجة أقل في "جدلية الجنون والإبداع".

قدمت الأطروحة الأولى (الإيقاع الحيوى) بموجز هذا نصّه (مع تعديل لبضع كلمات):

" تقدم هذه المداخلة فرضاً يقول بأن الحلم هو نشاط معرفى، يقوم بوظيفة تنظيمية أقرب إلى

الإبداع، سواء تم ذلك مع إعلان تأليف حلم يرويه الحالم عند استيقاظه، أم ظهرت نتائجه المعرفية

أهم قياس هداني إلى محاولة فهم طبيعة "عملية الحلم"، وبعض وظيفته، هو القياس على عملية الإبداع، وأيضاً على عملية الجنون

الحلم هو نشاط معرفى، يقوم بوظيفة تنظيمية أقرب إلى الإبداع، سواء تم ذلك مع إعلان تأليف حلم يرويه الحالم عند استيقاظه، أم ظهرت نتائجه المعرفية والتنظيمية تؤكّد كفاءة أداؤه لهذا النشاط المنتظم المتعاود، كجزء من الإيقاع الحيوى الشامل.

والتنظيمية تؤكد كفاءة أدائه لهذا النشاط المنتظم المعهود، كجزء من الإيقاع الحيوي الشامل.

يستتبع ذلك إعادة النظر في مستويات الحلم من أعمق حركية التنشيط البيولوجي الإيقاعي الراتب، حتى التقاط بعض آثار هذا التنشيط من معلومات هي مادة صياغة الحلم المحكى قبيل اليقظة (هذا إذا حكاه الحالم أصلا)، وما بين هذا وذاك تقع مستويات وسطى: من التنشيط العشوائى غير المعلن إلى إعادة التنظيم الإبداعي، مع احتمال تزييف بديل خيالي مصنوع (غير مقصود)، يحل محل إبداعية الحلم فى صورة الحلم المحكى على مستويات متعددة بين التأليف والتزييف والإبداع.

كما تتناول المداخلة مقارنة قياسية بين مراحل إبداع الحلم، ومراحل إبداع الشعر خاصة، مع إشارة للإبداع القصصى (والروائى)، كذلك تمت المقارنة لموازاة قراءة الحلم بالنقد الإبداعي، بدلا من تفسيره الملتزم بقواعد من خارجه، تماما مثل التذكرة برفض محاولة تقييم النص الأدبى بعلمنة نقدية تقيسه بمقاييس جامدة، مهما بدت مُحكمة.

ولم تتعرض المداخلة كثيرا إلى القياس المقارن الثالث وهو "عملية الجنون"، وإن كنت قد تناولتها بدرجات متفاوتة عند الحديث عن "الاضطراب الجوهري للتفكير" وبدرجة أقل فى ملف الإدراك (نشرة 2012-7-3) و(نشرة 2012-7-4) (كما سيرد هنا فيما بعد).

ثم جاء أيضا فى نفس الأطروحة:

منذ انتشر استعمال رسام المخ الكهربائى وماهية الأحلام تتضح فسيولوجيا. إمكانية تحديد ظهور النشاط الحالم بإيقاع حتمى منظم (20 دقيقة كل 90 دقيقة أثناء النوم) برصدها تخطيطا أحدثت أثر الصدمة على المفسرين والمحللين [1]. إن من أهم ما أثبتته هذا الكشف هو إقرار أن الحلم يحدث حتما، سواء تذكرناه وحكيناه، أم لا، وأن الحلم ليس -أساسا- حارسا للنوم كما قال فرويد [2]، بل لعل النوم هو خادم الحلم، أى أننا لا نحلم لنحافظ على استمرار نومنا، وإنما الأصح أننا ننام لنحلم أساسا، وبانتظام راتب، وأننا إن لم ننام، فلن نحلم، ولن نعيد تنظيم معلوماتنا. لقد تأكد من خلال تجارب الحرمان من النوم، ثم من تجارب الحرمان من الحلم (من النوم الحالم) أن وظيفة الحلم هي وظيفة تنظيمية، تعزيرية تعليمية [3] أساسا، الحلم ليس مجرد تنفيذ أو تفريغ أو تحقيق رغبة، كما أنه ليس مجرد حارس للنوم، وقد أدت هذه الصدمة المعرفية إلى التقليل من التركيز على محتوى الحلم لحساب الاهتمام أكثر فأكثر بدوره فى تحقيق التوازن النفسى والتنظيم التركيبى فى الصحة والمرض.

لا مفر من التسليم بالمعطيات الفسيولوجية للنشاط الحالم، ولا بديل عن الإقرار، فى الوقت نفسه، بخبرة الناس، والمبدعين، والمفسرين، فيما يتعلق بالمحتوى، وبالتالي: فلا بد من حل يخرجنا من هذا المأزق. هذا بعض ما تحاوله هذه الدراسة، وبيان ذلك:

المأزق:

إن ظاهرة الحلم المسجلة، فسيولوجيا، هي النشاط الحالم الحيوى المتناوب مع نشاط اليقظة من ناحية، ومع طور بقية النوم (غير الحالم أساسا، وليس تماما) من ناحية أخرى. هذا النشاط الحالم يقوم بتحريك الكيانات (المعلومات) الداخلية، أى أنه يقوم بقلقلة المعلومات التى لم تتمثل تماما، أى: بتفكيك البنية القائمة نسبيا بهدف إعادة تنسيقها لحقيق درجة أكبر من التوازن والتكامل والتمثل

إعادة النظر فى مستويات
الحلم من أعمق حركية
التنشيط البيولوجي الإيقاعي
الراتب، حتى التقاط بعض
آثار هذا التنشيط من
معلومات هي مادة صياغة
الحلم المحكى قبيل اليقظة

إقرار أن الحلم يحدث حتما،
سواء تذكرناه وحكيناه، أم لا،
وأن الحلم ليس -أساسا-
حارسا للنوم كما قال فرويد
[2]، بل لعل النوم هو خادم
الحلم

لا نحلم لنحافظ على استمرار
نومنا، وإنما الأصح أننا ننام
لنحلم أساسا، وبانتظام راتب،
وأننا إن لم ننام، فلن نحلم،
ولن نعيد تنظيم معلوماتنا.

تأكد من خلال تجارب
الحرمان من النوم، ثم من
تجارب الحرمان من الحلم (من
النوم الحالم) أن وظيفة الحلم
هي وظيفة تنظيمية، تعزيرية
تعليمية [3] أساسا،

والاستيعاب، يتكرر هذا النشاط إيقاعياً، في محاولة دائبة لاستكمال مهمة التوازن والنمو البيولوجي (إبداع الذات المستمر المتناوب).

الفرض (فيما يتعلق بالحلم أساساً):

من خلال ما تابعته في الممارسة الإكلينيكية، وأيضاً من الخبرة الشخصية تبين لي أنه حين يستيقظ النائم - أو يوقظ - في أثناء هذا التنشيط الإيقاعي المسمى النوم الحالم (أو النوم النقيض: أنظر بعد) فإنه يواجه - وهو يستيقظ - بكم غامر من مفردات (معلومات) تم تحريكها أثناء هذا النشاط (الحالم). وهو حين يحكى الحلم إنما يؤلف بين بعض هذه المعلومات بطريقة لفظية مرئية حتى يمكن للغة الحكى أن تستوعبها، بدرجة ما، ومن ثم يمكن أن تنقلها إلى آخر، أو أن يتذكرها الحالم أو يسجلها لنفسه، ويتم التأليف (قبل التسجيل) - في جزء من ثانية - بطريقة غير طريقة التفكير والتأليف في أثناء اليقظة، ليكون الناتج هو هذه الصورة المكثفة المتداخلة، بما تحمل من سرعة نقل، وتدوير للزمن، أو عكسه، أو تقطيعه. (أنظر بعد).

انطلاقاً من هذه المقدمة، التي هي جزء لا يتجزأ من الفرض يمكن أن يصاغ **الفرض الأساسي** لهذه المداخلة على الوجه التالي:

1- ثمَّ نشاط **بيونفسى [4]** يسمى الحلم، وهو نشاط يشير إلى العملية الناتجة عن النشاط الإيقاعي الذي يمكن تسجيله برسام المخ، فيما يسمى نوم حركة العين السريعة REM. وهذا النشاط يشمل عمليات: اللقطة والتفكيك وإعادة الترتيب والصل.

2- إن هذا النشاط الأساسي ليس هو الحلم الذي نحكية (يفسره لنا ابن سيرين، أو فرويد أو غيرهما) ولكنه المصدر الحركى للحلم المحكى، وهو معمل أجديته.

3 - تمثل المعلومات المُقلَّلة المُفكَّكة المادة الخام (الأبجدية) التي ننسج منها الحلم المحكى.

4- يتم تأليف الحلم أثناء (لحظات) عملية الاستيقاظ، لا قبلها.

5- إن تذكر الحلم أو حكيه أو تسجيله هي عمليات لاحقة لما تم تشكيله من هذه المعلومات المُقلَّلة، بتأليف تال في زمن آخر، يسمح بالحكى أو التسجيل

6- إن الحلم المحكى - بناء على ذلك - هو نتاج عملية إبداعية هائلة السرعة، تتم في جزء من الثانية، أو في بضع ثوان، في حالة بينية من الوعي، لا هي وعى الحلم، ولا هي وعى اليقظة.

من أهم مايساعد في فهم ما ترمى إليه هذه الدراسة هو تصور الوحدة الزمنية الأصغر وقدرتها على احتواء تأليف مكثف، يبدو ممتداً عند روايته. ولتوضيح ذلك أورد ملاحظتين: الأولى حلم اقتطفه فرويد (حلم موري 1878) (تفسير الأحلام ص 64، 65) .. كان مريضاً يلزم الفراش وإلى جواره أمه، فرأى فيما يرى النائم أن الوقت هو حكم الإرهاب في عهد الثورة (الفرنسية)، وجعل يشهد بعض مناظر الموت المروعة، ثم دعى للمثول أمام المحكمة، وهناك رأى روبسبير، ومارا، وفوكييه-تانييل وسائر الأبطال المفجعين لهذا العهد الرهيب، وسأله هؤلاء الحساب. ثم بعد عدة من التفاصيل لم يعد يذكرها، أدين وسيق إلى ساحة الإعدام، يحيط به جمهور لا حصر له. وصعد موري على المنصة وشده الجلاد إلى العارضة، وانقلبت هذه، وهوى نصل المقصلة، وأحس موري برأسه ينفصل من جذعه، فاستيقظ في رعب، فإذا هو يتبين أن رأس السرير قد سقط، فأصاب عموده الفقرى عند العنق،

الحلم ليس مجرد تنفيذه أو تفريغ أو تحقيق رغبة، كما أنه ليس مجرد حارس للنوم، وقد أدت هذه الصدمة المعرفية إلى التقليل من التركيز على محتوى الحلم لحساب الامتصاص أكثر فأكثر بدوره في تحقيق التوازن النفسى والتنظيم التركيبى في الصحة والمرض.

إن ظاهرة الحلم المسجلة، فيسولوجياً، هي النشاط الحالم الحيوى المتناوب مع نشاط اليقظة من ناحية، ومع طور بقية النوم

النشاط الحالم يقوم بتحويل الكيانات (المعلومات) الداخلية، أي أنه يقوم بقلقلة المعلومات التي لم تتمثل تماماً، أي: بتفكيك البنية القائمة نسبياً بهدف إعادة تنسيقها لتحقيق درجة أكبر من التوازن والتكامل والتمثل والاستيعاب

مثلما يفعل نصل المقصلة .

أوردت هذا الحلم لسبب غير السبب الذى أورده فرويد وهو يحاول الربط بين الحدث الخارجى ومحتوى الحلم. إن هذا الحلم يظهر مدى التناسب الظاهرى بين الحدث المسئول عن محتوى الحلم وبين القصة الممتدة كل هذا الزمن، بمعنى أن سقوط رأس السرير لم يستغرق سوى ثانية، أو بضع ثوان فى حين أن الحلم كما حكى، استغرق كل ذلك الزمن، بما يدعم فكرة تناهى صغر زمن الحلم، وعدم ارتباطه بالزمن المحكى فى محتوى الحلم، فضلا عن ترجيح ما سيأتى به الفرض من أن الحلم قد تأليفه كله مع لحظة الاستيقاظ بسبب سقوط رأس السرير.

الملاحظة الثانية من خبرات شخصية أورد إحداها كمثال:

كنت أقود سيارتى ليلا فى طريق مصر اسكندرية -الزراعى-، وقبل كوبرى قليوب العلوى بعشرات الأمتار رأيتنى وأنا أخطب فى جمع من الناس، وأنادى أألى، وأتوعد بعض المارقين، وأسمع أغنية سخيفة ثم أستيقظ فزعا- لأنى كنت مازلت أقود السيارة - وأجد السيارة لاتزال تسيير مستقيمة وبسرعة، وأنظر إلى جارى الممتلى يقظة فلا أجده قد لاحظ شيئا، فأعلم أنى حلمت كل هذه الأحداث فى جزء من الثانية، أو أقل أو أكثر قليلا، فأحكى الحلم لجارى فلا يكاد يصدق. أوردت هذا المثال الشخصى لتأكيد زمن الحلم المتناهى فى الصغر من ناحية، وللإشارة إلى عدم ضرورة علاقة محتوى الحلم بالأحداث الخارجية من جهة أخرى. ويمكن ربط هذه الفكرة المزعجة (تناهى صغر لحظة الحلم/ الإبداع) بمفاهيم كثيرة شائعة وصعبة الاستيعاب، مثل مفهوم الميكروجينى (الذى اقتطفه أريتى من فرنر)، و"لحظة" الإلهام عند المبدعين، وربما أصل به لمفهوم "الوثبة" فى إبداع الشعر... إلخ. مما لا مجال لتفصيله هنا.

فى عمل لاحق لى "ترحالات" (مزيج من أدب الرحلات والسيرة الذاتية) مررت بتجربة مشابهة أتيها فى هذا العمل الجزء الثالث من الترحالات (الجزء الثالث: ذكر ما لا ينقال) القاهرة 2000 ، فتأكدت أن الخبرة الأولى فى الطريق الزراعى لم تكن مجرد مصادفة أو تصورا من جانبى.

وبعد

وغدا نتكلم عن مستويات الحلم ومرحلة تمهيدا للتقدم إلى المقابلة بينها وبين الإبداع والجنون بقدر ما تتيح الفرصة الفرصة.

III - فكرة علاقة الأحلام بالدورة البيولوجية قديمة قبل اكتشاف رسام المخ أصلا، وقد نبه إليها فرويد حين ذكر أن فيلسوفا شابا هو "هـ. سفوبودا" حاول أن يستخدم فكرة الدورة البيولوجية التى اكتشفها فليس Fliess (صديق فرويد).. وقال بأن المادة التى يتألف منها الحلم ينبغى تحليلها باجتماع جميع الذكريات التى تختتم إحدى الدورات البيولوجية".وبرغم بساطة الاقتراح فالفكرة لا بد أن تعطى حق السبق لقائلها بعد الاكتشافات الحديثة التى ثبتت برسام المخ الهربائى ورصده ما يسمى "حركة العين السريعة" أثناء النوم النقيضى الذى هو النوم الحالم. وقد استهان فرويد بهذه الفكرة فى حينها، بل خاف منها على الأحلام وعلى نظريته حيث قال "... ولو صحت آراؤه (فرويد يقصد آراء الفيلسوف سفوبودا) لنفقت أهمية الأحلام سريعا"، بل إن فرويد قد فرح حين تراجع سفوبودا عن فكرته فقال: إنه (الفيلسوف) قد أرسل يعلنه فيها أنه لم يعد يأخذ نظريته هذه مأخذ الجد (تفسير الأحلام فرويد، الترجمة ص 125). على أن مخاوف فرويد وتراجع سفوبودا لا نلزمنا بالتراجع معهما، ذلك أننا بمراجعة النظريات الأقدم التى أوردها فرويد وفندها يمكن أن نجد كثيرا منها

تمثل المعلومات الموثقة
الموثقة المأخوذة
(الأبجدية) التى ننسج منها
الحلم المحكى

يتم تأليف الحلم أثناء
(لحظاته) عملية الاستيقاظ، لا
قبلها.

إن تذكر الحلم أو حكيه أو
تسجيله هى عمليات لاحقة لما تم
تشكيله من هذه المعلومات
الموثقة، بتأليفه نال فى زمن
آخر، يسمع بالحكى أو التسجيل

إن الحلم المحكى - بناء على
ذلك - هو نتاج عملية
إبداعية هائلة السرعة، تتم فى
جزء من الثانية، أو فى بضع
ثوان، فى حالة بينية من
الوهمى، لا هى وهمى العلم، ولا
هى وهمى اليقظة.

قد عاد إلى الظهور بشكل يحفظ له - بالرغم منه - حق السبق، مثل ما أورده فرويد عن: نظرية اليقظة الجزئية، أو الاستيقاظ الفارقى (تفسير الأحلام ص 109-110). وبهنا هنا أن ننبه على مبدأ عام: يسمح باستقبال أفضل لما يضيفه المبدعون، حتى لو تراجع صاحب النظرية التي لا تملك وسائل إثباتها في حينها، فإن ذلك قد لا ينفى صحة النظرية التي أعلنت دون دليل آنذاك، وإنما قد يعنى دعوة لبحث متواصل لعلنا نجد لاحقاً أدوات ومناهج إثباتها، وهذا ما ثبت في كثير من الأحيان حتى فيما يتعلق بأول عمل لفرويد The project الذى تنكر له فرويد شخصياً ورفض نشره باسمه حتى أنه لم ينشر إلا بعد وفاته، وهو ما يسمى "المشروع" The Project، وهو ما ثبت صحة كثير من أفكاره بعد امتلاك وسائل البحث النيوروفسيولوجية الأحدث وخاصة التصوير المقطعى التشريحي والوظيفي .C.T. , SPECT & PECT.. etc.

[12] - يقصد فرويد بتعبير أن الحلم حارس للنوم: أن الحلم يحدث ليستوعب المؤثر القادم من البيئة الخارجية مباشرة، والذى يهدد النائم بالاستيقاظ، فيتخلق الحلم فوراً ليحتوى المنبه فى أقصوصة أو رؤية فلا يستيقظ النائم بفضل أنه يحلم، وهذا قد يحدث فعلاً، ولكننا نتحفظ على التفسير الفرويدي، بمعنى أن حالة النشاط الحالم هي سابقة ولاحقة للمؤثر الخارجى الذى قد يثير ترابطات خاصة متعلقة بنوعه، وكذلك بمعنى أن تأليف الحلم أثناء الاستيقاظ فى وجود هذا المؤثر يحمل فرصة أن يحتويه لا أن يكون نتيجة له (انظر بعد).

[13] - Foulkes, D. (1978)، A Grammar of Dreams, New York Basic Books, Inc. (P3-18)

انظر أيضاً يحيى الرخاوى: "دراسة فى علم السيكوباتولوجي" خاصة ص 637، 638.

[14] - Psychobiological

أهم ما يساعد فى فهم ما ترمى إليه هذه الدراسة هو تصور الوحدة الزمنية الأصغر وقدرتها على احتواء تأليفه مكثفه، يبدو ممتداً عند روايته.

*** **

شبكة العلوم النفسية العربية
الكتاب السنوي الثالث لشبكة العلوم النفسية العربية

مؤسسة العلوم النفسية العربية
تهديكم

الكتاب السنوي الثالث لشبكة العلوم النفسية العربية



"شعـن / أرابسيـناتـ"
مسيـرة إنـتـيـي عـشـرة عـامـا

2015-2003

تحميـل الأهمـل عـاء

www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet12Years.pdf

الإنسان والتطور
الأصدار الخامس من سلسلة الدراسات والبحوث

الإصدار التاسع - خريفه وشتاء 2014 / 2015
ملف الوجدان و اضطرابات العواطف
أ.د. يحيى الرخاوى



تنزيل كامل الإصدار
http://www.arabpsynet.com/pass_download.asp?file=1002

الفهرس
<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/eBT9/eB9YRCont&Chap1-2.pdf>

حليل الإصدار السابفة
<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/IndexRak.htm>